مقابلة

ميرنا الشدياق
mirnachidiac@gmail.com

المجتمع اللبناني بين مرونة الصمود وتحدّيات التعافي
قراءة سوسيولوجيّة لمستقبل وطن أنهكته الأزمات

لم تعد الازمات في لبنان احداثا عابرة، بل تحولت الى واقع فرض تحولات عميقة في حياة الافراد وبنية المجتمع. ورغم قسوة الحروب والانهيارات المتلاحقة، برزت مظاهر لافتة من الصمود والتكيف في مشهد يثير تساؤلات حول حدود المرونة المجتمعية، مستقبل التماسك الاجتماعي، امكانات التعافي وبناء الثقة في المرحلة المقبلة

على مدى عقود، تعرض المجتمع اللبناني لسلسلة من الحروب والنزاعات والازمات السياسية والاقتصادية والمالية، وصولا الى الانهيار الاقتصادي وانفجار مرفأ بيروت والحروب المتعاقبة على الاراضي اللبنانية. ورغم هذه الانتكاسات المتكررة، اظهر اللبنانيون قدرة لافتة على الاستمرار واعادة بناء قدراتهم الاجتماعية والاقتصادية. لكن يبقى السؤال الاساسي: هل نجح المجتمع اللبناني فعلا في ترميم ذاته واستعادة دوره وتماسكه، أم أن آثار الازمات المتراكمة لا تزال تعيد تشكيل بنيته الديموغرافية والاجتماعية والنفسية بصورة عميقة قد تهدد مستقبله؟ "الامن العام" التقت الاستاذ الجامعي والباحث في علم الاجتماع الدكتور مأمون طربيه.

■ كيف يعرف علم الاجتماع مفهوم "المرونة المجتمعية" في مواجهة الازمات؟

□ في سؤالك هناك مصطلحان في غاية الاهمية وهما الازمة والمرونة، وكأن وجود أحدهما يفرض وجود الآخر، لكن لنحدد اولا ماذا نعني بهما؟ الازمة كمفهوم سوسيولوجي هي موقف يتطلب معالجة اصلاحية نتيجة ما قد ينجم عنه من ظروف صعبة تؤثر على مسار عام، أو نظام ما يتحتم معه البحث عن السبل لمواجهته وتحسينه. في هذا التعريف اشارة الى خاصتين: خاصية الفشل في التوافق الذي يقوم بها الافراد والجماعات والتي يمكن ردها الى ظروف البيئة التي يعيشون فيها كالبطالة والفقر والجريمة، والخاصية الثانية خاصية البحث عن وسائل عاجلة للمعالجة قبل ان تستفحل وتؤذي بتداعياتها. في الخاصية الثانية ما يؤشر الى امر يفترض وجوده عند مواجهة الازمة وهو ما اشرت اليه بالمرونة، فالمرونة (Flexibility) من حيث تعريفها سيكولوجيا هي خاصية تنم عن القدرة على التكيف والتلاؤم كما انها وفي مكان تعني ميزة الانفتاح والاستعداد من جانب الفرد لتطويع امكاناته وتوجهاته تجاه موقف متأزم. في هذا السياق، نفهم المرونة الاجتماعية على انها قدرة الفرد او الجماعة على التكيف الايجابي مع التغيرات والضغوط والمواقف الاجتماعية المختلفة، مع المحافظة على التوازن النفسي والعلاقات الاجتماعية الفاعلة، والقدرة على استعادة الاداء الطبيعي بعد الازمات او الصعوبات. المثال على ذلك، نلاحظ مثلا أن شخصا (لنقل هنا لبناني) يفقد عمله بسبب ازمة اقتصادية، لكنه لا ينعزل اجتماعيا او يستسلم للإحباط، بل يعيد تنظيم حياته ويستفيد من شبكة علاقاته ويبحث عن فرص جديدة، ويتكيف مع الظروف الطارئة. وهذا ما يمكن اعتباره نوعا من المرونة النفسية والانفعالية من خلال تطوير القدرة على تحمل الضغوط والغموض، وتمسكه بالصبر والايمان والمحافظة على الامل بالمستقبل رغم تكرار الازمات وتوظيف العلاقات الاسرية والمهنية للحصول على فرص عمل أو خدمات أو دعم.

■ هل يمكن اعتبار المجتمع اللبناني نموذجا للمرونة الاجتماعية رغم كثافة الازمات التي مر فيها؟

□ اذا ما نظرنا الى المرونة الاجتماعية، وكما عرفناها آنفا بأنها قدرة الافراد والمجتمعات على التكيف مع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فإننا نميل الى اعتبار المجتمع اللبناني نموذجا من النماذج التي تمتع بمرونة مجتمعية - ربما هذا يعود ذلك الى تعرضه للعديد من الازمات على عقود من الزمن وتعلمه من الخبرات - حيث تتجلى هذه المرونة في الحفاظ على التماسك العائلي وتعزيز التضامن الاجتماعي من خلال تقديم المساعدة بين الاقارب والجيران، انتشار المبادرات التطوعية والاغاثية (حالة انفجار المرفأ اظهرت مستوى عاليا ولافتا بالمبادرات الانسانية) وتقاسم الموارد والخدمات في اوقات الشدة، (كما حصل مع النازحين والهاربين من المناطق المتضررة بالحرب). هذا الواقع ليس من قبيل التنظير، اذ لو تأملنا كيف ان اللبناني مع كل حرب او ازمة امنية او حدث مأساوي طارئ، يظهر مرونة مجتمعية فوريا من خلال مجموعة من السلوكيات والاليات التي تدل على ما لأفراد هذا المجتمع من فاعلية مواجهة عند الظروف القاسية لجهة تكيفه مع الاحداث الطارئة (كإعادة تنظيم الحياة اليومية بما يتناسب مع المخاطر/ تعديل اوقات العمل والدراسة والتنقل وفق الاوضاع الامنية)، الحفاظ على استمرارية الواقع المعاش (كاستمرار قيامه بالنشاط التجاري والمهني والتعليمي ولو بصورة جزئية بل وحتى عبر اقامة المناسبات الاجتماعية والعائلية، بما يعكس الرغبة في الحفاظ على نمط الحياة)، تنويع مصادر الدخل والمعيشة (ممارسة اكثر من عمل لمواجهة الضغوط الاقتصادية). وهذا ما يعرف عند اللبنانيين بقولهم: "عم اشتغل أكثر من شغلة حتى لحّق"، وكذلك

الاستاذ الجامعي والباحث في علم الاجتماع الدكتور مأمون طربيه.

بالاعتماد على التحويلات المالية من افراد الاسرة في الخارج. ونشير هنا الى أن "الدولار الاغترابي" الذي كان يرسل من قبل ابنائهم واقاربهم هو فعليا الرئة التي تتنفس من خلالها اللبنانيين ابان الازمات، هذا الى جانب القدرة على التعافي واعادة البناء عبر اعادة اعمار ما تهدم وتضرر سريعا.

■ ما هي العوامل التي ساعدت اللبنانيين على الاستمرار بعد كل حرب او ازمة؟

□ من خلال استطلاع للرأي اجريته العام الفائت (2025) عن تداعيات الحرب والازمات المتعاقبة تحت عنوان: مؤشرات القلق والامل عند اللبنانيين في ظل الحروب والازمات، وجه الى المستجوبين سؤال مفاده: كيف تلاحظ بأن اللبنانيين يحيون بالأمل على رغم ما يجري من ازمات وحروب؟ كانت الغاية من السؤال التوقف عند السلوك التي يقوم به اللبنانيون خلال الازمة، وهل يمكن ان يقعوا فريسة اليأس ام ثمة سبل أكثر تكيفا وتأقلما يتحينونها ليبقوا على قيد الحياة؟ في الاستطلاع، تبين لدينا ان ثمة عوامل وأخصها النفسية والاجتماعية التي ساعدت على

> **المرونة المجتمعية ركيزة الصمود في الازمات المتلاحقة**

استمراره في الظروف القاسية (هذه العوامل هي فعليا ما اشار اليه المستجوبون):

- إعادة بناء ما تهدم لمجرد ان تنتهي الحرب او حتى في اوانها.
- التمسك بالأرض حيث رفض اللبنانيون تركها.
- إرادة العيش التي غالبا ما تتم عبر حب السهر والقيام بالاحتفالات.
- اللبناني يخلق الفرح اينما كان... بل يحول ما يمر به الى لحظات أنس.
- فعل الايمان.
- تمتعه بالايجابية (فهو يستخدم الفكاهة والسخرية على ما يجري حوله كوسيلة للتخفيف من التوتر).
- حياة الرفاهية التي يسعى اليها لينسى اهوال الحرب، ولأنه اعتاد التكيف والتأقلم لم يعد تؤلمه قسوة الحرب.

يظهر من اجابات عينة من اللبنانيين بل اكثرهم، على انهم يتكيفون مع الازمات وظروف الحرب القاسية، فهم يتغلبون على مآسيها بإرادة الحياة ورغبة العيش الكريم والسعي نحو مسارات الترفيه ايمانا منهم بأن الامل يبقى على الرغم اما يحدث فهو موجود ولا بد منه، لأنه لولا الامل لربما كانت احوال الكثير من اللبنانيين ضحية المعاناة والقهر واليأس، لهذا يتمسكون به كبلسم لوجع قائم الى أن تنتهي المآسي وتعود الامور الى طبيعتها.

■ ما هو دور العائلة وروابط القربى في حماية المجتمع من الانهيار؟ وكيف ساهمت المبادرات المحلية والمجتمع المدني في تعويض غياب الدولة في مراحل مختلفة؟

□ كباحث في مجال العمل الاجتماعي ومتابع للمبادرات التي تطلق خلال الازمات، ألاحظ أهمية الدور الاسري والترابط العائلي عند الواقع المتأزم، ذلك ان التوافق مع الازمة يعتمد اساسا على اداء اعضاء الاسرة او الاهل او الاقارب لأدوارهم، وكذلك يعتمد على استجابة المجتمع المحيط لأن هناك عوامل عدة مؤدية الى التوافق مع الازمة، منها: مدى العلاقات العاطفية بين اعضاء الاسرة، شبكة العلاقات الاجتماعية، تعاطف هيئات المجتمع المحلي مع ما يحدث من تداعيات وانتكاسات. لنفرض مثلا ان الحرب أو الازمة خلفت ذيولا قاسية على عائلة لبنانية، مثل مرض مزمن او اصابة أحد افرادها بإعاقة، او موت رب الاسرة او غيابه وفقدانه عن جماعته، فضلا عن تداعيات يمكن ان تتركها تتعلق بالبطالة والتهجير والغربة والتشرد، هنا يبرز دور المؤسسات الحاضنة - الاسرة/ الاقارب/ دور الرعاية – في المساعدة على تلقف مآسي الحرب كي لا يستفحل أثرها على الافراد المصابين او المتأثرين بعواقب أقسى تتجلى ربما بالانحراف او بالجريمة او بالعنف المجتمعي. ◄

■ هل نشهد اليوم ارتفاعا في مشكلات الصحة النفسية نتيجة الازمات المتراكمة؟ وكيف انعكس الضغط النفسي المستمر على انتشار الامراض الجسدية والنفسية؟

□ نعم، لا شك في ذلك. يقال بأن الحرب لا تقتصر على ساحات القتال، انها تتسلل الى البيوت والنفوس، فتغير عادات الناس واحلامهم وطريقتهم في النظر الى المستقبل. وما ان تضع الحرب اوزارها يظهر مقدار ما خلفته من ألم، فهي تترك ندوبا في الذات فلا تختفي آثار ما خلفته نفسيا بمجرد انتهائها، بل قد تستمر المعاناة والالم بما احدثته من جروح عميقة في النفس والروح ليعيش الناجون في دوامة استعادة الذكريات المأساوية واصوات الانفجارات ومشاهد القتل والتدمير، حتى ان هذه المشاهد لا تفارق مناماتهم واحاديثهم، وهو ما يشار اليه بالاصابة باضطرابات نفسية. من الاضطرابات النفسية التي تسببها الحروب: اضطراب ما بعد الصدمة (يظهر اضطراب ما بعد الصدمة في استعادة الشخص للذكريات المؤلمة مرارا وتكرارا)، الشعور بالخوف الشديد من تكرار معايشة الحروب، كذلك تجنب المواقف والاماكن التي تحيي ذكريات الحرب المؤلمة بداخله. قد يستمر هذا الاضطراب أشهرا عدة او

“العائلة اللبنانية خط الدفاع الاجتماعي الاول دائما”

سنوات، علما ان الإكتئاب يشعر الشخص بالحزن المستمر واليأس وفقدان الطاقة وانعدام القيمة، وقد يصل الامر الى الانتحار في بعض الحالات. اضطراب القلق هو حالة من التوتر المصحوب بالخوف وتوقع الخطر، ومن يقع فيه لفترات مستمرة يصبح ضحية الرهاب القهري.

■ ما هي أبرز التحولات في القيم الاجتماعية والسلوكيات اليومية خلال سنوات الازمات؟

□ كعلماء اجتماع، نرى ان الحروب والازمات تمثل اختبارا لمنظومة القيم. فعندما تضعف المؤسسات الرسمية او تعجز عن اداء وظائفها، يعيد المجتمع ترتيب اولوياته الاخلاقية. لذلك قد تظهر قيم جديدة تتناسب مع ظروف البقاء، بينما تتراجع قيم كانت سائدة في ظروف الاستقرار. من هنا، فان التغيير القيمي لا يعني بالضرورة انهيار الاخلاق، بل قد يكون اعادة تشكيل لمنظومة القيم وفقا للظروف الجديدة. فأي حرب او ازمة مقلقة تترك بدورها آثارا اجتماعية عميقة في منظومة القيم والاخلاقيات، الا ان هذه الآثار ليست دائما في اتجاه واحد، فقد تؤدي الى تآكل بعض القيم، وفي المقابل قد تعزز قيما اخرى. يعتمد ذلك على مدة الازمة، وشدتها، وطبيعة المجتمع، وفاعلية مؤسساته. من هذه الآثار مثلا، تراجع قيمة الالتزام بالقانون عبر تجاوزه او الالتفاف عليه من اجل تأمين الحاجات الاساسية باعتبار أن لا أحد يسأل في ظل هذه الحال، وظهور سلوكيات غير قانونية مثل الاحتكار والغش والرشوة والفساد، استغلال حاجة الآخرين، ازدياد التعصب والانقسام، وقد تزداد الانقسامات الطائفية في المجتمعات التعددية وتتراجع قيم التسامح والحوار.

■ بعد 100 عام تقريبا على تأسيس الجمهورية اللبنانية، وبعد كل ما شهده لبنان من حروب وازمات وانهيارات، هل نحن امام مجتمع نجح في اعادة انتاج نفسه والحفاظ على حيويته، ام امام مجتمع انهكته الصدمات المتراكمة وبات في حاجة الى عقد اجتماعي جديد يعيد بناء الثقة بين الدولة والمواطن وبين اللبنانيين أنفسهم؟

□ سؤال جدلي، اذ ما زالت الاشكالية قائمة عند اللبنانيين وهي اي وطن نريد؟ فاللبنانيون سئموا فترات التوتر وحالات النزاع بين الحين والآخر، ورغم ذلك ما برحوا ينهضون من جديد. لكن نظرهم دائما على الوطن الذي يريدونه، فالمشكلة اذن مشكلة وجودية حول المصير الذي يريده اللبنانيون لأبنائهم، فنحن لا نعيش مشكلة نظام، بل نعيش مشكلة انتماء ملتبس غالبا ما يظهر عبر مواطنة مبهمة. لذا يفترض اعادة تعريف واضح لهذه المواطنة مع الجيل الجديد لكي يبني وطنا يعيش دائما فيه آمنا ومستقرا وليس لمرحلة من حياته، ثم يرحل عنه مهاجرا ومغتربا.